الدرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد:

معاشر المؤمنين : في موضوع فضل الإسلام والحديث عن فضائل الإسلام –والإسلام فضائله لا حصر لها ولا عد– قد مر معنا من فضائل الإسلام ما دل عليه قول الله ﷻ ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[المائدة : ٣] ؛ فهذه ثلاث فضائل للإسلام ذُكرت في هذه الآية الكريمة ؛ فهو الدين الذي أكمله الله ﷻ لعباده ، وهو الدين الذي به تمام النعمة على العباد ، وهو الدين الذي رضيه الله ﷻ لعباده ديناً ولا يقبل منهم ديناً سواه كما قال ﷻ : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥]

ومر معنا كذلك من فضائل الإسلام : أنه الدين الذي قامت عليه ودلت عليه الحجج الواضحات البينات وكل ما سواه من الأديان ليس لها حجة ولا برهان وما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، وقد مر معنا في هذا المعنى قول الله ﷻ :﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ [يونس : ١٠٤]

ومر معنا كذلك من فضائل الإسلام العظيمة : أن من كان مسلماً مؤمناً متقياً يُؤتى أجره يوم القيامة مرتين ، ويؤتيه الله ﷻ نوراً يُبصر به الطريق ويرى به السبيل ، وتُغفر له ذنوبه كما هو مبيَّن في قوله جل وعلا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨]

وبعد هذه الفضائل المنتقاة من كتاب الله ﷻ ؛ يشرع المصنف رحمه الله وغفر له في ذكر بعض فضائل الإسلام التي وردت في سنة النبي الكريم ﷺ .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ((مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ ؛ فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ ؟ فَعَمِلَتْ الْيَهُودُ ، ثُمَّ

قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ ؟ فَعَمِلَتْ النَّصَارَى ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ ، فَغَضِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا : مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ عَطَاءً !! قَالَ هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ ؟ قَالُوا لَا ، قَالَ فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ))]

****

أورد المصنف هنا هذا الحديث العظيم في بيان فضل الإسلام وأنه أفضل دين أنزله الله ﷻ على عباده وختم به الأديان ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، هذا الدين العظيم الذي هو آخر الأديان المنزّلة من الله ﷻ على عباده، وقد شاء تبارك وتعالى أن يكون هذا الدين الذي هو آخر الأديان المنزّلة وخاتمتها أعظم دين بأحكامه وأعماله وما جاء فيه من أوامر ونواهي وفضائل وأجور مضاعفة ، وهذا فضل الله ﷻ يؤتيه من يشاء .

والآية التي ختم بها المصنف رحمه الله فضل الإسلام يليها قول الله ﷻ : ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد : ٢٩] ، فالفضل بيد الله تبارك وتعالى والله ﷻ يؤتي الفضل من يشاء ؛ فالأمور بتدبيره ﷻ ، وهو الذي يحكم بين العباد ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠] ، فالفضل فضله ﷻ ، ولهذا خص هذا الدين العظيم دين الإسلام بأن جعله متميزاً عن غيره من الأديان المنزّلة بأحكامه ، وأجوره المضاعفة ، وفضائله العظيمة ، وخيراته العميمة .

وفُضِّل هذا الدين بالقرآن الكريم الذي هو أعظم كتابٍ أنزل الله تبارك وتعالى على أعظم رسول ﷺ ؛ ولهذا فإن هذا الفضل الذي ناله أهل الإسلام بهذا الدين الذي خُتمت به الرسالات المنزّلة والأديان المنزّلة يرجع إلى فضل الكتاب الذي نُزّل عليهم ؛ وهو القرآن الكريم أفضل كتاب أنزله الله تبارك وتعالى . ولهذا فإن الإمام البخاري في كتابه الصحيح أورد هذا الحديث في فصل عنوانه : «فضائل القرآن» ، والقرآن ليس له ذكر في هذا الحديث ، والإمام البخاري رحمه الله أورد الحديث في فضائل القرآن !! ونبّه أهل العلم في شرح الحديث إلى أن صِلة الحديث بالترجمة : من جهة أن فضل هذا الإسلام وفضل هذا الدين الذي أنزله الله تبارك وتعالى يرجع إلى فضل القرآن الذي أنزله الله ﷻ على أمة محمد عليه الصلاة والسلام .

ولهذا جاء في هذا القرآن الكريم من الفضائل والخصائص والميزات ما لم يأت في كتاب آخر ، ولهذا جاء في حديث صحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((أنزل عليّ سورة لم يأتِ في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلها فاتحة الكتاب)) فهذه فضائل .

وجاءه ملَك يبشره بهذه السورة العظيمة كما جاء في الصحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إذ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ – أي جبريل- فَقَالَ هَذَا بَابٌ مِنْ السَّمَاءِ

فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ – جبريل – هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ – ثم جاء هذا الملك الذي نزل إلى الأرض أول مرة من ذاك الباب الذي فُتح من السماء لأول مرة وجاء إلى النبي ﷺ – فَسَلَّمَ وَقَالَ : أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ ؛ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ)) . فهذه فضائل وخصائص وميزات خص الله بها كتابه العظيم القران الكريم الذي خَتم به الكتب المنزلة .

وجاءت الأجور مضاعفة تضعيفاً لم تكن عليه في الأديان التي قبلنا التي أنزلها الله ﷻ ، وجاءت الأمور فيها من التيسير والتخفيف ما لم يكن أيضا في الأديان التي قبلنا ، وفي الدعاء في القران الكريم في الآيات التي في خواتيم سورة البقرة وقد أوتيها النبي عليه الصلاة والسلام ولم يؤتها نبي قبله يقول الله ﷻ : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] ؛ هذا من الخصائص والفضائل التي منَّ الله ﷻ على أمة محمد ﷺ بها.

كان بعض من قبلنا توبته لا تُقبل منه إلا أن يقتل نفسه توبةً إلى الله ﷻ ، وحُمِّلوا من الأمور أموراً خُففت عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام ورُفعت عنهم منًّا من الله ﷻ وفضلا ، ولهذا قال ﷻ في أوصاف هذا النبي: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف:١٥٧] ، هذا كله من فضل الله تبارك وتعالى بهذا الدين الإسلامي ؛ الدين العظيم الذي بعث الله ﷻ به رسوله ونبيه محمداً عليه الصلاة والسلام .

ومما تميز به هذا الدين – دين الإسلام – خاتمة الأديان المنزلة : أن الأجور فيه مضاعفة والعمل فيه قليل ؛ الصلاة التي أُمرنا بها مخففة عن خمسين صلاة ، ولما أسري بالنبي ﷺ إلى السماء وكان يتردد بين رب العالمين وموسى عليه السلام ففُرضت الصلاة أول ما فرضت خمسين صلاة في اليوم والليلة ، ونزل بها عليه الصلاة والسلام مستجيباً ، فلقيه موسى عليه السلام وقال : إن أمتك لا تطيق ذلك فسأل الله التخفيف ، وأخذ عليه الصلاة والسلام في سؤال التخفيف، وكلما نزل بتخفيف آخر قال موسى عليه السلام: إن أمتك لا تطيق ذلك فخُفِّفت الصلاة إلى خمس صلوات في اليوم والليلة ، فهي خمس في العمل وخمسون في الأجر والثواب . فهذا من تخفيف الله ومنّه ﷻ على هذه الأمة أمة الإسلام ، أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فالعمل الذي طُلب من أهل الإسلام قليل والأجور التي أثيبوا بها كثيرة جدا ، والأديان التي قبلنا العمل أكثر والأجر عليه أقل، دون أن يظلم ﷻ أهل تلك الأديان ، لكنه تفضل على أمة محمد – عليه الصلاة والسلام – بأجور مضاعفة ، ولهذا في الحديث الذي سيأتي معنا الآن شرحه وبيان معناه لما غضبت اليهود والنصارى قال رب العالمين: ((**هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ ؟ قَالُوا لَا ،قَالَ فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**)) فالأمم التي قبلنا لم يُنقصوا شيئاً من أجورهم ، ولكن الله تبارك وتعالى خص أمة الإسلام بأجور

مضاعفة لم تكن للأمم التي قبلنا . فلله ﷻ الحمد أولاً وأخراً، وله تبارك وتعالى الشكر ظاهراً وباطناً على هذه المنة العظيمة التي نسأله ﷻ أن يوزعنا شكرها وتحقيق القيام بهذا الدين على الوجه الذي يرضيه عنا .

قال : ((**وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ**))؛ أهل الكتابين المراد بهم : اليهود والنصارى ؛ اليهود الكتاب الذي أنزل عليهم التوراة ، والنصارى الكتاب الذي أنزل عليهم الإنجيل ، فهم أهل كتابين أي لكل منهما كتاب؛ اليهود كتابهم التوراة ، والنصارى كتابهم الإنجيل .

ونبينا عليه الصلاة والسلام يضرب هنا مثلاً لحال هذه الأمة مقارنةً بحال اليهود والنصارى في الأجور والثواب والجزاء على الأعمال ، ومحصَّلة هذا المثل : بيان أن الأجر لأمة الإسلام أجراً مضاعفاً وزائداً على الأجور التي كانت لمن قبلنا ، والعمل الذي لأمة الإسلام أقل من عملهم ؛ فالعمل أقل والأجر أكثر ، وأولئك كان العمل عندهم أكثر والأجر أقل ؛ دون أن يُنقصوا شيئا ، ولكنه تفضّل تبارك وتعالى على أمة الإسلام بالتضعيف في الأجور والثواب . وهذا مثل ضربه النبي عليه الصلاة والسلام ليوضح هذا الأمر ، وهو الأجر على العمل لأمة الإسلام مقارناً بالأجر على العمل لليهود والنصارى أهل الكتابين .

والأمثال لها شأن في توضيح الأمور وتبيينها وجعْل الأمر المعنوي بمنزلة الأمر المحسوس المعايَن المشاهَد ؛ فالأمثال يُقصد بها توضيح المعاني وتجليتها بحيث ترى الأمر المعنوي أمامك شيئاً محسوساً بالمثال الذي ضُرب له ، ولهذا كثرت الأمثال في القران ، ففي القرآن ما يزيد على الأربعين مثل ، وكثرت الأمثال في السنة حتى أنها لكثرتها بعض العلماء أفردوها بالتصنيف ، أفرد غير واحد من العلماء في الأمثال ؛ أمثال السنة كذلك أمثال القران في كتب. ففيها توضيح لحقائق الدين وأصول الإيمان وفضائل الدين . والمثل يكون به الأمر المعنوي بمثابة ومنزلة الأمر المحسوس.

فالآن في هذا الحديث سيبين النبي عليه الصلاة والسلام الأجر الذي لأمة الإسلام مقارناً بالأجر الذي لأهل الكتابين ؛ مع كثرة العمل عندهم وقلة العمل عند أمة الإسلام !! واستمع إلى هذا المثل :

قال : ((**مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ**)) أي أستأجر عمّالاً يعملون عنده بأجر وبمقابل، وهؤلاء الأجراء كما هو في الحديث لهم ثلاثة أوقات، ((**فَقَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ**)) من غدوة : من الفجر ، إلى نصف النهار : إلى صلاة الظهر أو قريباً منها ، وهذا وقت طويل ((**مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ ؟**)) وقت العمل طويل والأجر عليه قيراط واحد . وقيل في القيراط : إنه من أجزاء الدينار .

((**عَلَى قِيرَاطٍ فَعَمِلَتْ الْيَهُودُ**)) يعني في هذا الوقت من غدوة إلى نصف النهار والأجرة قيراط .

((**ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟**)) وهذا وقتٌ طويل إلا أنه أقصر من الوقت الذي قبله ، فالوقت الذي من غدوة إلى نصف النهار أطول من الوقت الذي من نصف النهار إلى صلاة العصر ((**فَعَمِلَتْ النَّصَارَى**)) .

((**ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟**)) من صلاة العصر إلى غروب الشمس هذا الوقت أقل من الوقت الذي هو من غدوة إلى نصف النهار ،ومن الوقت الذي هو من نصف النهار إلى العصر ، فالوقت أقل والأجر مضاعف ؛ أولئك الوقت أطول وأمة الإسلام الوقت أقل ، وأولئك الأجر قيراط وأمة الإسلام الأجر قيراطان ؛ يعني ضعف الذي يؤتاه أولئك ، يعني الأجر الذي يؤتاه أولئك مدبولاً ، القيراط معه قيراط آخر .

قال عليه الصلاة والسلام : ((**فَأَنْتُمْ هُمْ**)) يعني أنتم يا أمة الإسلام هؤلاء الذين عملهم من العصر إلى غروب الشمس وأجرهم قيراطان ، مشيراً عليه السلام بهذا المثل – وعرفنا أن الأمثلة يؤتى بها للتوضيح والبيان ؛ إذ ليس وقت العمل لأمة الإسلام محصوراً في هذا الوقت ، ولا أيضا وقت العمل للنصارى محصوراً في الوقت المشار إليه في الحديث ، ولا وقت العمل لليهود محصوراً في الوقت المشار إليه في الحديث ؛ وإنما هذا مثال للتوضيح والبيان – فقال ((**فَأَنْتُمْ هُمْ**)) أي أنتم الأمة التي حُصت ومُيّزت بعمل أقل وأجر مضاعف ، فهذه فضيلة لأمة الإسلام دل عليها هذا الحديث ؛ أن عملها أقل وأجرها مضاعف على الأمم التي قبلنا .

((**فَغَضِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ عَطَاءً !!**)) ؛ العمل الذي عملناه أكثر والأجر الذي أوتيناه أقل !!

((**قَالَ هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟**)) ؛ يعني هل الأجور التي لكم نُقِص منها شيء أم أخذتموها وافية ؟ والجواب أنهم أخذوا أجورهم وافية لا نقص فيها .

((**قَالُوا لَا**)) يعني لم نُنقص شيئا من أجورنا .

((**قَالَ فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**)) فإذا أعطى أولئك أجورهم وافية لم يظلمهم ، وإذا خص أمة الإسلام بمزيد أجر ومضاعفة ثواب فهذا فضله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، والله سبحانه وتعالى قال في الآية التي مرت معنا مختومةً بها سورة الحديد: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الحديد:٢٩] فهذا من فضل الله .

والواجب على أمة الإسلام أن يستشعروا هذه النعمة العظيمة والمنة الكبيرة التي منّ بها عليهم ربهم سبحانه وتعالى ، وأن يذكروا منة الله تبارك وتعالى عليهم بالإسلام فإنها أعظم المنن ، ورب العالمين سبحانه وتعالى يحب من أمة الإسلام أن يذكروا هذه النعمة ، بل جاء في صحيح مسلم من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال : «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم خَرَجَ

عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ مَا أَجْلَسَكُمْ ؟» يعني لماذا هذا الجلوس ما المقصد منه ؟ قَالُوا : «جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا» يعني نذكر منة الله علينا بالإسلام والهداية لهذا الدين والنعمة التي أنعم الله علينا بها بهذا الدين ، وإنقاذ الله تبارك وتعالى لنا من الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء ، فجلسوا في المسجد يذكرون نعمة الإسلام . قال رسول الله ﷺ : ((آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟)) يستحلفهم بالله ؛ آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ يعني ما جلستم إلا لهذا الأمر لا لأمر آخر ؟ قَالُوا : «وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ» والله ما جلسنا إلا لتذكر هذا الأمر ومذاكرة هذا الأمر ، فقال ﷺ ((أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ)) يعني لم أطلب منكم الحلف لأنني أتهمكم على الكذب ، ليس هذا الغرض وليس هذا السبب ؛ إذًا ما هو السبب؟ قال ((وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ)).

فهذا الحديث العظيم وهو في صحيح مسلم يفيد أن الله ﷻ يحب من عباده أن يجلسوا لتعلّم الإسلام وفضائل الإسلام ومكانة الإسلام ونعمة الله ﷻ على عباده بالإسلام ؛ ولهذا جاء جبريل إلى النبي عليه الصلاة والسلام يخبره بأن الله يباهي ملائكته بهؤلاء الذين جلسوا في المسجد لمذاكرة الإسلام وفضائل الإسلام ومنة الله ﷻ عليهم بالإسلام . وهذا من فضله تبارك وتعالى على عباده وعظيم منّه عليهم ؛ مع أنه سبحانه غني عن العباد وغني عن جلوسهم لطاعته وذكره وعبادته ؛ فهو ﷻ لا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا تضره معصية من عصى ؛ فمن الخير للمسلم أن يتذكر نعمة الله تبارك وتعالى عليه بالإسلام ومنة الله عليه بهذا الدين ، وأن يحرص على تحقيق شكر هذه النعمة ؛ فشكر الله على الإسلام: أن تعمل بالإسلام ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾[سبأ/١٣] ، وأن تحرص على تعلّم الإسلام ومعرفته ومعرفة أركانه وواجباته ومعرفة فضائله ، والنبي عليه الصلاة والسلام شرح الإسلام وبيّنه ووضحه ؛ فتُقبل على سنة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ تتعلم هذا الدين العظيم وتجاهد نفسك على القيام به كما أمرك الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله :

وفيه أيضا عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أَضَلَّ اللَّهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ؛ فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) .

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث ؛ حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ ((**أَضَلَّ اللَّهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا**)) ؛ أضل عن الجمعة من كان قبلنا ومنّ الله ﷻ على أمة الإسلام بمعرفة هذا اليوم ، ومعرفة قدره ، ومعرفة عظيم الثواب الذي أعده الله تبارك وتعالى لعباده في هذا اليوم العظيم .

ويوم الجمعة له خصائص عجيبة ومميّزات عظيمة وفضائل كبيرة ، وقد أطال في عدِّها وبيانها وتفصيلها العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه «زاد المعاد» في المجلد الأول منه ؛ فقد تكلم كلاماً بديعاً وعظيماً في خصائص وفضائل يوم الجمعة ، وقد عدَّد من خصائصه وفضائله ما يزيد على الثلاثين ، مما يبين مكانة هذا اليوم وعظيم فضل الله ﷻ على عباده به ، فهذا اليوم العظيم المبارك الذي هو خير أيام الأسبوع وأفضلها أضل الله ﷻ عنه –كما جاء في الحديث – من كان قبلنا وهدى أمة الإسلام إليه .

قال: ((**فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ**)) ؛ فهذه منة الله ﷻ أن هدى أمة الإسلام لهذا اليوم العظيم وعرّفهم بفضائله وخصائصه ومميّزاته ، ولهذا فإن ليوم الجمعة عند أهل الإسلام شأن ، وله مكانه ، وفيه فريضة عظيمة دعا ﷻ إليها أمة الإسلام في كتابه في سورة الجمعة ؛ قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾[الجمعة:٩] دعاهم إلى هذه الفريضة العظيمة التي في يوم الجمعة ؛ فيجتمع الناس ويغدون ويذهبون إلى المسجد في هذا اليوم المبارك وأجورهم وثوابهم عند الله ﷻ في هذا اليوم بقدر تبكيرهم ؛ فمن جاء في الساعة الأولى فكأنما قرّب بدنة ، ومن جاء في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة ، ومن جاء في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشًا ، ومن جاء في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة ، ومن جاء في الساعة الخامسة فكأنما قرّب بيضة ، أجورهم متفاوتة في هذا اليوم بقدر تبكيرهم ودنوهم من الإمام وطمأنينتهم في هذا اليوم ، وحرصهم على سماع الخير والعلم الذي يلقى في هذا اليوم في خطبة الجمعة التي كان لها شأن عظيم عند نبينا عليه الصلاة والسلام ؛ حيث كان كل جمعة يخطب الناس ، وكان في خطبته كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ ، وكان يقول : ((أما بعد ، فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كلام اللَّهِ ، وخير الْهُدَى هُدَى رسول الله ﷺ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ)) .

وقد جاء في هذا اليوم وفي حضور هذه الصلاة والتبكير لها أجور عظيمة جداً ، ولا يهولك عظم الأجر عندما تسمع به ولكن تأمل في عظمة المعطي والمانّ ﷻ على أمة الإسلام ، وقد جاء في الحديث: ((الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ ؛ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ)) ، وجاء في الحديث: ((مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ فَدَنَا مِنْ الْإِمَامِ وَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ أَجْرُ سَنَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا)) ؛ فهذه فضائل لهذا اليوم العظيم المبارك . وجاء في الحديث أن في يوم الجمعة ساعة تُعرف عند أهل العلم بساعة الإجابة لا يوافقها عبدٌ يسأل الله ﷻ إلا أعطاه الله ما سأل . وهذا اليوم له فضائل وخصائص عظيمة يحسن مطالعتها في كتاب زاد المعاد لابن القيم رحمه الله .

قال: ((**فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ ،وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)) ؛ يبين ذلك عليه الصلاة والسلام بقوله: ((**نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)) ؛ نحن الآخِرون لأن أمة محمد عليه الصلاة والسلام أخر

الأمم ، ورسالة النبي ﷺ خاتمة الرسالات ، وهو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين ؛ فقال: ((**نَحْنُ الْآخِرُونَ**)) يعني حُتمت بنا الأمم ، ((**وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)) لأن أمة الإسلام مقدمة على الأمم التي قبلها ، فهم جاءوا آخِراً ولكنهم يأتون مقدمين يوم القيامة . ولعله ينطبق هنا قول الشاعر:

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِك المدَلّلِ تَمْشِي رُوَيْداً وَتَجِيء في الأَوّلِ

أمة الإسلام ؛ عمل قليل وأجر مضاعف ، وتأتي هذه الأمة العظيمة مقدَّمةً على الأمم السابقة ؛ سابقةً عليها بالأجر والثواب والجزاء عند الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله :

وفيه تعليقاً عن النبي ﷺ أنه قال : ((أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ)) انتهى .

****

قال ((**وفيه تعليقا عن النبي ﷺ**)) ؛ فيه : أي في صحيح البخاري . والبخاري رحمه الله أورد هذا الحديث في صحيحه معلقا في ترجمة باب ، لأنه ليس على شرطه في الصحيح ، ولكنه خرّجه بإسناده في كتاب الأدب المفرد، وخرّجه غيره من أهل العلم ، وهو حديثٌ حسن الإسناد .

قال عليه الصلاة والسلام: ((**أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**)) ؛ وهذا الحديث فيه ذِكْر ثلاثة فضائل للإسلام :

الفضيلة الأولى : أنه أحب الأديان إلى الله تبارك وتعالى .

والفضيلة الثانية : في قوله ((**الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**)) ؛ فهو دين حنيف ودين سمح .

و«**الحنيفية**»: هي البعد عن الشرك ولإقبال على التوحيد ،كما قال ﷻ : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٠] ، فالحنيف : هو المائل عن الشرك إلى التوحيد . فدين الإسلام هو دينٌ حنيف ليس فيه خرافات ، وليس فيه ضلالات ، وليس فيه ترّهات وأوهام؛ وإنما هو دينٌ قائم على صحة المعتقد وسلامة الدين وحُسن الصلة برب العالمين بالإقبال عليه ﷻ وحده خضوعاً وتذللاً ورغَباً ورهباً ؛ فهو دينٌ مائل عن الضلالات ، متجافٍ عن الأباطيل والخزعبلات ، قائم على الحق والهدى والإقبال على الله تبارك وتعالى بصدق وإخلاص .

و «السمحة» : هذه أيضا من فضائل هذا الدين العظيمة أنه دين السماحة ودين اليسر ، وما جعل الله ﷻ في هذا الدين على العباد من حرج ؛ أعماله أعمال ميسَّرة لا عنَت فيها ولا مشقة ، وقد قال ﷺ في حديث صحيح ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا)) ؛ وصف عليه الصلاة والسلام هذا الدين بأنه يسر ؛ يُسر في عقائده لأن عقائده عقائد صحيحة واضحة بيّنة ، ليست عقائد قائمة على الخرافة

أو على الضلال ، بل هي عقائد سليمة توافق الفطر وتقبلها العقول السليمة ، وأعماله أعمال ميسرة في فرائضه وواجباته ومستحباته ((صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ)) أمور ميسرة يسرها رب العالمين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] ، ((مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ))، فهو دين السماحة ودين يسر وليس فيه مشقة وليس فيه عنت، قد قال الله ﷻ : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] ؛ فهو دين سمح ، دين ميسر ، دين سهل فيه هذه الصفات العظيمة التي تدل على كماله ورفعته .

قال رحمه الله :

وعن أبي بن كعب ﷺ قال : «عليكم بالسبيل والسنة ؛ فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكَر الرحمن ففاضت عيناه من خشيت الله فتمسه النار ، وليس من عبدٍ على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة يبِس ورقها فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحاتّ عنها ورقها إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها ، وإن اقتصادًا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة» .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الأثر العظيم عن أبيّ بن كعب وفيه توضيح لحقيقة الإسلام ، وفيه أيضا ذِكر فضائل عظيمة جداً لمن يحافظ على الإسلام كما أمِر بذلك ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢] ، فثمة فضائل عظيمة جداً ينالها من حافظ على الإسلام كما أمره الله ﷻ بالمحافظة عليه ، بخلاف حال كثير من الناس الذين يعملون أعمالاً يظنونها من الإسلام ، ويظنونها من دين الله ، ويظنونها من شرعه ﷻ وهي بخلاف ذلك ، ولهذا جاء في حديثٍ صحيحٍ عن النبي ﷺ رواه البخاري ومسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) : أي مردود على صاحبه غير مقبول منه .

فأبي بن كعب رضي الله عنه وأرضاه في هذا الأثر العظيم يبين لنا حقيقة الإسلام وما يترتب على قيام العبد بهذه الحقيقة كما أمِر وعلى الوجه الذي أُمر به ؛ فيقول : ((**عليكم بالسبيل والسنة**)) ؛ السبيل والسنة هو الإسلام ، لأن الإسلام هو سبيل الله الذي دعا عباده إلى سلوكه على وفق السنة وما جاء به رسول الله ﷺ ، ولعل مما يبين لنا هذا المعنى ذلك المثل العظيم الذي ضربه النبي عليه الصلاة والسلام لبيان الدين وبيان الإسلام وحقيقة الإسلام فقال ﷺ : ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ)) يعني جداران وتأمل المثل جيداً ؛ صراط مستقيم ، ومبني على جنبتي الصراط المستقيم سوران : أي جداران ((فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ)) وأنت تمشي

مع هذا الصراط على يمينك جدار وعلى يسارك جدار ، وفي الجدار أبواب تمر على يمينك وعلى يسارك، ((وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ)) يعني الأبواب ليس لها أقفال وإنما كل باب عليه ستارة ((وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تعوجوا)) يعني انتبه ولا تلف عنه لا يمين ولا شمال ، ((وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ : وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ)) تدخل ، لا تفتح باب الحرام على نفسك ، لأنك إن فتحت باب الحرام على نفسك دخلت في الحرام ، فاجعل الباب الذي بينك وبين الحرام مغلق لا تفتحه فإنك أن فتحه تلجه ، ((وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى)) لأن لك في طريق الإسلام حدود لا تخرج عنها ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣] فلك حدود لا تتعداها ، ((وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ)) هذه أبواب تُخرج الإنسان عن الطريق المستقيم إلى حيث الحرام . ولاحظ هنا ملاحظة عجيبة: أن الطريق الحرام ما يحتاج من داخله إلى وقت لأن عليه باب والباب عليه ستارة ، ومن أراد أن يدخل من بابٍ عليه ستارة هل يحتاج إلى وقت عند الدخول ؟ هل يحتاج إلى أن يقف ويعالج يد الباب ليفتح الباب أو يفتح القفل ثم يفتح ويدخل ؟! الباب الذي عليه ستاره وأنت على هيئتك تمشي تلمس الستارة بكتفك وإذا بك داخل بدون ما يأخذ منك وقتاً أو جهداً، ((وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ ﷻ ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ في قلب كل مسلم)) ولهذا سبحان الله !! المسلم الذي هو ماضٍ على الطريق المستقيم إذا بدأت نفسه تدخل في معصية يجد في صدره حزة ووخزة ؛ هذا واعظ الله ﷻ في قلب كل مسلم ، لكن هذا الواعظ يتبلد عند الإنسان إذا تعمق في الحرام ومضى فيه فيصبح –والعياذ بالله– يمضي في الحرام ولا يحس ، لأنه تعطل عنده هذا الإحساس وتبلد عنده هذا الواعظ . فهذا مثل عظيم جداً ضربه النبي عليه الصلاة والسلام للإسلام .

إذاً قول أبيّ ((**عليكم بالسبيل**)) أي عليكم بهذا الصراط الذي هو الإسلام .

((**والسنة**)) أي أسلكوا هذا الصراط المستقيم على ضوء السنة التي بُعث بها نبينا عليه الصلاة والسلام . فليس لك أن تعمل متقربا إلى الله ﷻ بما شئت من الأعمال قائلاً أريد أن أسلك السبيل الموصل إلى الله تبارك وتعالى بأعمال أخترعها ، ليس لك ذلك ؛ ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)) أي مردود على صاحبه ، فعليك أن تسلك هذا السبيل على وفق سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . قال: ((**عليكم بالسبيل والسنة**)) ثم انظر الأجر .

((**فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكَر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار**)) لا تمسه النار.

انتبه لهذا القيد العجيب، القيد العظيم الذي نبه عليه أبيّ ﷺ ، قال: ((**ما من عبد على سبيلٍ وسنة**)) لكن الذي على ضلالة وبدعة وعلى هوىً وخرافة ؛ لو فاضت عيناه بالدموع فهو على خطر عظيم من هذه البدعة

التي هو عليها ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:١٠٣-١٠٤] هو على خطر عظيم .

ولهذا ينبغي أن يكون العبد –وهذا تنبيه عظيم مبارك من أبي رضي الله عنه– ينبغي أن يكون العبد في خشوعه وبكائه وخشيته وإقباله على الله على السنة ، لا أن يجلس الإنسان خاشعاً باكياً ولكنه على ضلالة وبدعة ، البدعة لا توصلك إلى الله ولا تقربك من الله ، البدعة تبعد الإنسان عن الله ولا تقربه من الله، ولهذا لابد مع خشية الإنسان وخشوعه وبكائه ورقة قلبه من إقبال على الله بسنة النبي ﷺ ، أرأيتم لو أن رجلاً جلس عند قبر خاشعاً باكياً متذللاً دموعه تنهمر لا تقف ويبكي بكاءً متواصلاً وهو على هذه الحال قائماً وعاكفاً عند القبر مناجياً صاحب القبر طالباً متوسلا ؛ هل هذا العمل والبكاء والخشوع يدنيه من الله أو يبعده من الله ﷻ؟ يبعده من الله ما يقربه منه ، لا يقرب من الله ﷻ إلا العمل الصالح الخالص ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠] . ولهذا نبه هذا الصحابي الجليل على هذا القيد المهم ؛ الخشوع ورقة القلب والدموع أمر طيب لكن على سبيل وسنه . أما إذا كانت هذه الدموع وذاك الخشوع على غير سبيل وسنه فالله لا يقبل من العمل إلا الخالص الموافق للسنة . ولهذا قال العلماء : لا يُقبل العمل إلا بشرطين؛ الشرط الأول : الإخلاص ، والشرط الثاني : المتابعة . ولعل في قول أبي بن كعب ((**عليكم بالسبيل والسنة**)) إشارة إلى هذين الشرطين ؛ فالسبيل : هو الإسلام ، وهو الاستسلام لله على وجه الإخلاص ، والسنة: هي الإتباع والاقتداء بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام . والله ﷻ لا يقبل العمل إلا إذا كان بهذا الوصف : خالصاً لله موافقاً لسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى في قوله ﷻ : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] : «أخلصه وأصوبه» ، قيل : يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه ؟ قال : «العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ؛ حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة» أي على سنة رسول الله ﷺ .

ثم قال أبيّ : ((**وليس من عبد على سبيلٍ وسنَّة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من خشية الله**)) لاحظ أيضاً القيد مرة ثانية أعاده؛ ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من خشية الله ((**إلا كان مثله**)) انظر الثواب ((**كمثل شجرة يبس ورقها**)) يعني جفت وأصبح فيها ورقٌ يابس ((**فبينما هي كذلك إذ أصابتها ريح**)) يعني جاء هواء ((**فتحاتَّ عنها ورقها إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها**)) ؛ هذا مثال .

وهذا المثال الذي ذكره أبيّ جاء ذِكره في السنة ؛ جاء في السنة أَنَّ النبيﷺ مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةِ الْوَرَقِ فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ فَتَنَاثَرَ الْوَرَقُ فَقَالَ: ((إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ لَتُسَاقِطُ مِنْ ذُنُوبِ الْعَبْدِ كَمَا تَسَاقَطَ

وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ)) ، والصحابة يرون الورق يتحات ، فيقول عليه الصلاة والسلام هذا مثل لمن يكثُر ذكره لله تسبيحاً وتحميداً وتهليلا . ولاحظ هنا ؛ ذكر الله بما شرع يحصل به تحات الذنوب ، أما ذكر الله بالبدع والأهواء والخرافات والطقوس التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان هذه لا يتحات بها الذنوب ؛ بل يُخشى على العبد فيها من الإثم ومن العقوبة ، فالأعمال التي يتحات بها الذنوب كما يتحات ورق الأشجار هو التقرب إلى الله بالأذكار المشروعة والعبادات التي أمر الله تبارك وتعالى عباده بها .

ثم ختم هذا الأثر أبيّ بقوله: ((**وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهادٍ في خلاف سبيل وسنة**)) ؛ الاقتصاد : هو التوسط والاعتدال . وقد صح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا)) القصد: هو التوسط ؛ لا غلو ولا جفاء ، لا إفراط ولا تفريط ، لا تزيد عن المأمور ولا تنقص عنه ، التوسط هو أن تلزم السبيل والسنة ، حتى وإن قلّ العمل فالعبرة ليست بالكم ولكنها بالكيف ؛ أن يكون العمل موافق للسنة، فأن تقتصد في عمل على سبيلٍ وسنة خيرٌ لك من أن تجتهد في عمل ليس على سبيل ولا على سنة .

اضرب لك مثالًا : لو أنك صليت في ليلة ركعتين بعد صلاة العشاء أو قرب صلاة الفجر وختمتها بركعة الوتر واستغفرت الله ﷻ من ذنبك ، هذا الذي كان منك هذه الليلة ، هذا العمل اسمه «اقتصاد في سنة» ، لأنه عمل مسنون مأمور به ، عليه عند الله تبارك وتعالى ثواب جزيل . ((**اقتصاد في سنة خير من اجتهاد بدعة**)) ، هذا خير لك من أن تحيي الليلة كاملة في بدعة ما أنزل الله بها من سلطان مثل بدعة المولد أو بدعة الاحتفال بليلة الإسراء أو غير ذلك ، لو جلست تلك الليلة مَن صلى ركعتين بدون هذه الأعمال التي ما شرعها الله خيرٌ منك ؛ لأن الله شرع لك في الليل صلاة الليل ، وشرع لك في الليل أن تستغفر ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧] ، فأن تعمل في الليل الأعمال التي شُرعت ولو كان العمل الذي قمت به قليل خير لك من أن تجتهد ليلة كاملة في عمل ليس على سبيل ولا سنة .

وهذا مثال قس عليه بقية الأمور والأعمال ، وهي قاعدة عظيمة احفظها من هذا الصحابي الجليل ، ليست هذه القاعدة من أي أحد ؛ وإنما هي من صحابي عرف الحق وعرف الهدى ولزم النبي عليه الصلاة والسلام أعطاك هذه القاعدة الذهبية : «**اقتصاد في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة**»؛ فإذا كان العمل ليس عليه دليل من السنة دعك منه ابتعد عنه وإن حثك عليه الناس وإن رغّبوك فيه ، ابتعد عنه ، وعليك بالعمل الذي هو على السنة ولو كان قليلا ، فإذا كنت مبتلى في بلدك بمثل هذه الاحتفالات ؛ إذا احتفل الناس توجه إلى بيتك وصلى ما كتب لك الله من صلاة وحافظ على ما تصلي عليه في لياليك واستغفر الله ونام فأنت على خير ، لأن اقتصادك هذا وعملك هذا على سنة ، هو في عمل صالح أمرَك الله به ورغّبك النبي عليه الصلاة والسلام وجاءت فيه أحاديث كثيرة جداً عن النبي ﷺ ، وألّف العلماء فيه مؤلفات كثيرة في فضل قيام الليل وثواب قيام الليل ، فعليك بهذا العمل الصالح الذي فيه فضائل ، ودعك من هذه الأعمال التي يقوم بها الناس ما

أنزل الله ﷻ بها من سلطان ، مثل اجتماعهم على إنشاد القصائد واجتماعهم على الأراجيز وربما اجتماع بعضهم على الطبول وعلى أعمال مثل هذه الأعمال ويعدّونها من صالح عملهم ، وهي ليست من السنة ، ومن يقول إنها من السنة يأتي بالدليل ، السنة بيّنة ومحفوظة وكتبها معروفة ومشهورة وليس فيها دعوة إلى مثل هذه الأعمال .

فالواجب على المسلمين عمومًا أن يتقوا الله تبارك وتعالى وأن يحافظوا على دينهم على هذا النهج المبارك الذي رسمه النبي عليه الصلاة والسلام وسار عليه الصحابة من بعده ، ولا يفتح الإنسان لنفسه في هذا المقام مبررات ، لا تُقبل منك المبررات مهما كانت إذا لم يقم على عملك دليل من سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، فلنحفظ هذه الوصية المباركة «عليكم بالسبيل والسنة» ، ثم ختم هذه الوصية بقوله : «**وإن اقتصادًا في سبيل وسنه خير من اجتهاد في اختلاف سبيل وسنة**» .

وأتوجه إلى من بيده أزمة الأمور ومن بيده مقاليد السموات والأرض ، أتوجه إلى الهادي ﷻ أن يجعلنا وإياكم كذلك ، نسأل الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا وإياكم على السبيل والسنة ، وأن يعيذنا جميعا من الضلالة والبدعة ، اللهم اجعلنا أجمعين على السبيل والسنة وأبعدنا يا الله عن الضلالة والبدعة.

قال رحمه الله :

وعن أبي الدر داء ﷺ قال : «يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم كيف يغبنون سهر الحمقى وصومهم ، ولمثقال ذرة مع تقوى ويقين أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادةً من المغترين» .

****

لا إله إلا الله !! تأمل هذا الأثر العجيب عن الصحابي الجليل أبي الدرداء رضي الله عنه ، وتأمل هذا الأثر جيدا ينفعك الله ﷻ به ، حتى قال ابن القيم رحمه الله في كتابه الفوائد عن هذا الأثر : «وهذا من جواهر الكلام ، وأدلِّه على فقه الصحابة وتقدّمهم على من بعدهم في كل خير»؛ كلام نفيس جداً ، كلام جواهر ، كلام كما يقولون يُكتب بماء الذهب ، من أنفس الكلام يقوله هذا الصحابي الجليل فتأمله .

يقول: ((**يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم**)) نوم وإفطار ؛ نوم في الليل وإفطار في النهار ، «**ياحبذا نوم الأكياس وإفطارهم**» ؛ يعني أن يكون الإنسان ينام ويفطر ولكنه ماضي على السنة على الجادة على هدي النبي ﷺ مجانِب للبدع والضلالات ، هذا خير من أن يعمل أعمالاً مثل الجبال ليست على سنَّة ، لأن تلك الأعمال التي مثل الجبال على غير السنة لا يقبلها الله ، لأن النبي ﷺ جزَم قال : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، طيب هل أيضا الأمر كفاف لا له ولا عليه ؟! ترد أعماله ولا له ولا عليه! أم أنه يأثم بتلك البدع والإعراض عن سنة النبي عليه الصلاة والسلام ؟! ولهذا يقول أبو الدرداء : ((**ياحبذا نوم الأكياس**)) ؛ يعني كون الإنسان ينام في الليل أفضل وخير من شخص يحيي الليل من أوله إلى آخره على غير سنة ، هذا يصلي العشاء وينام من أول الليل وإذا أذّن الفجر قام وصلى وقد قال عليه الصلاة والسلام ((مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ

فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ)) ، فهذا صلى العشاء مع جماعة وصلى الفجر مع جماعة ، والآخر أحيا الليل في بدع وخرافات وربما لم يصِل وقت صلاة الفجر إلا وهو متعب ومكدود ونام عن صلاة الفجر ، فيقول أبو الدرداء : ((**ياحبذا نوم الأكياس وإفطارهم**)) ؛ أيضا يفطرون وصيامهم قليل لكنهم لا يمارسون أعمالاً مبتدعة وأموراً محدثة ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان .

قال: ((**كيف يُغبنون سهر الحمقى وصومهم**)) ؛ الحمقى : يشير بذلك ﷺ إلى من يسهر على بدع وأيضا يصوم على ضلالة ، ليس كل صوم يُقبل ، أليس قال النبي عليه الصلاة والسلام عن أولئك النفر الذين أتوا إلى بيت النبي ﷺ وسألوا عن عبادته فكأنهم تقالّوها ؛ فقال أحدهم : أما أنا فأصوم ولا أفطر ، وقال الآخر : أما أنا أقوم ولا أرقد ، وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، فسمع النبي ﷺ بذلك فقال : ((لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)) ، هؤلاء عندهم صيام وعندهم قيام ولكنها على غير السنة ، وفي أمثالهم قال عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)) ، ولهذا قال : ((**يغبنون سهر الحمقى وصومهم**)) الحمقى : الذي يكون سهره على غير سنة ، وصيامه على غير سنة ، وعبادته على غير سنة ؛ هذا نوع من الحماقة لأنه تضييع الأوقات وإهدار للجهود من غير طائل ، بل يأتي وهو يأثم بإعراضه عن السنة وإقباله على البدع والخرافات والضلالات التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

قال ﷺ مبيّناً : ((**ولمثقال ذرة**)) يعني عمل قليل يسير جداً ((**ولمثقال ذرة من بِرّ مع تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادةً من المغترين**)) ؛ قارن! مثقال ذرة ويقابلها جبال ، والذرة أفضل من الجبال ، لماذا؟ لأن هذه الذرة وهي العمل القليل كانت من بِر ، والبر: هو الأمر الذي شرعه الله ﷻ مع تقوى ويقين . لاحظ صفات العمل الذي هو قليل ولكنه مقبول وأجره مضاعف : أن يكون من بر ؛ أي : من أمور البر التي شرعها الله ﷻ وأمر عباده بها ، وأقرأ على سبيل المثال في ذلك آية البر في سورة البقرة قال: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[البقرة/١٧٧] .

فأن يكون العمل من بِر : أي من عملٍ بَرٍّ مشروعٍ أمَر الله به ، وأن يكون مع تقوى ويقين : تقوى لله ﷻ بأن يقع منك خالصاً لا تبتغي به إلا وجه الله ، ويقين بثواب الله وجزاءه وما أعدّه الله ﷻ لعباده المتقين ((**أعظم وأفضل وأرجح**)) وكل واحدة من هذه الكلمات الثلاث تُغني عن الأخرى ، لكن من باب التأكيد ، لو قال أعظم كانت كافية ؛ لكنه أراد أن يؤكد هذه الحقيقة قال: ((**أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادةً من**

المغترين)) ؛ ويشير بالمغترين الذين تمضي أوقاتهم في ممارسات مُحْدثة وأعمال مبتدعة لم يكن عليها هدي النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

فكرر رعاك الله تأمل هذا الأثر وتأمل بدايته العجيبة ((**يا حبذا**)) يقول أبو الدرداء ، والذي كان عليه أبو الدرداء والصحابة الأخيار ومن اتبعهم بإحسان هو الاجتهاد في التقرب إلى الله ﷻ بالسنن والأعمال المشروعة التي أمر الله ﷻ بها عباده ودعوة الناس إلى ذلك .

ونختم بسؤال الله تبارك وتعالى التوفيق لرضاه والإعانة على طاعته وهداه ، وأن يرزقنا إتباع سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وأن يعيذنا من البدع والأهواء .

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .